

ملف العدد:

«المختصات في منحة القبائل»

هذه المحاضرات هي مجموعة أعمال قافلة علمية نظمتها
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.

بولاية سطيف «بلديتي قنات وبني ورثيلان»

بتاريخ: 25 و 26 شعبان 1434هـ، الموافق لـ 4 و 5 جويلية 2013م

المخطوطات تحترق واللغة العربية تختنق الغرب والمخطوطات، بدأها جمعا، فإحراقا، ليختمها تحقيقا

أ. حياة بناجي

- جامعة تيزي وزو -

مقدمة:

تزخر الجزائر بثروة هائلة من التراث العربي والمغاربي «المخطوط»، يعود إلى آلاف السنين، ورغم قيمته العلمية والحضارية إلا أنه يعاني الإهمال من قبل الباحثين والمختصين حيث لا تزال المخطوطات رهينة المكتبات والدهاليز والصناديق الخشبية معرضة للتلف والضياع، كما تتعرض من جهة أخرى لعمليات النهب والسطو المنظمة من طرف بعثات ولجان أجنبية مختصة، تندثر باندثار السياحة والبحث والعلم... تعتبر المخطوطات أهم المصادر التي نتعرف من خلالها على ذاكرتنا التاريخية والثقافية وذواتنا وأصالتنا الجزائرية، كما تعد نافذة نستشف عبرها إسهامات شعوب المغرب الإسلامي في مختلف المجالات العلمية والفكرية والاجتماعية، وقد تعرضت هذه الثروة الحضارية أيام الحقبة الاستعمارية إلى عمليات سطو أتت على الكتب القديمة والنادرة والمخطوطات الأثرية التي يعود بعضها إلى القرن السابع عشر الميلادي، حيث رافقت العمليات العسكرية والمداومات التي كان يقوم بها الفرنسيون، سرقات شملت ما تحتويه المكتبات العامة والخاصة في المساجد والزوايا والدور كما لا تزال هذه المخطوطات تعاني من أبشع أنواع العذاب من طرف أبنائها؛ وهو تهريبها عبر الحدود لتُسوّق في محلات المقتنيات النادرة في أوروبا، أو كقطع أثرية في المتاحف الغربية، حتى أصبح عدد المخطوطات في المتاحف والمحلات الغربية يفوق بكثير حجم المخطوطات المتواجدة بالجزائر.

1 - تعريف المخطوط:

لغة: «التَّخْطِيط: الطريقة المستقيمة في الشيء، والخط الطَّرِيق، والخط الكتابة ونحوهما مِمَّا يُخَطُّ»⁽¹⁾.

اصطلاحاً: المخطوط إرث مادي كبير، وهو عبارة عن كتاب مدوّن بخط اليد، تجده أحياناً كوفي الخط، لكن لدينا في المنطقة المغاربية يغلب عليه الخط المغاربي، تتنوع الموضوعات التي عالجتها المخطوطات؛ كالفقه واللغة وتفسير القرآن والحديث...

2 - نشأة المخطوط العربي:

من سنة حياة الحضارات أن تعتمد في بداية نشأتها على الرواية الشفوية، فالحضارة العربية اعتمدت في بدايتها على رواية وحفظ الأشعار والأمثال... لكن مع نزول الوحي الكريم وحرصاً عليه انتقلت من المروي إلى المكتوب، حيث التزم القوم، الدقة والأمانة في رواية كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ بل حتى في رواية أشعار الجاهليين والإسلاميين وأيامهم ووقائعهم إلى حد ما⁽²⁾ فميلاد الخط والكتابة ارتبطا بتزول القرآن الكريم.

نصبت الأمية خيامها بين العرب في الجاهلية، إلى أن سقاهم الإسلام بغيث الكتابة، ففي غزوة بدر كان من طُرُق مفاداة الأسرى المشركين أن يُعَلِّمَ الأسير الكتابة لعشرة مسلمين، فكان (زيد بن ثابت) كاتب الرسول ﷺ أحد هؤلاء الذين علّمهم الأسرى، تعلّمها في جماعة من الانصار الذين لم يكن فيهم من يُحسن الكتابة⁽³⁾ وكان (أبي بن كعب) أول أنصاريّ كتب للرسول ﷺ و(عبد الله بن سعد بن أبي سرح) أول من كتب له من قريش، وكان كتّاب الرسول ﷺ زهاء أربعين كاتباً ومن هم الخلفاء الراشدون الأربعة⁽⁴⁾، حيث كتبوا القرآن كله.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، عبد الله علي كبير وآخرون، د ط، القاهرة، دس، دار المعارف، مادة خطط.

(2) - عبد السلام محمد هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ط 7: القاهرة. 1998م، مكتبة الخانجي، ص 5.

(3) - المقرئ، إمتاع الأسماع، محمود شاكر، لجنة التأليف.

(4) - ابن سيّد الناس، عيون الاثر.

3 - تطوّر المخطوط العربي وأدوات كتابته:

أبدع الإنسان لتسهيل عمليّة الكتابة مواد وأدوات من صميم بيئته، بعضها مصنوع من الجماد، وبعض ثان من الحيوان، والبعض الآخر من النبات. ففي البيئة الصّحراوية مثلاً بحكم كثرة النّخيل، كانت العُسب والكرانيف مادة الكتابة، إضافة إلى الجلود والعظام والأكتاف والأضلاع وغيرها من أعضاء الحيوانات، فالمواد المصنوعة من جماد تتمثّل في الطّين والحجر واللّخاف⁽¹⁾ واستمرّ استعمالها إلى العصر الأموي، أمّا الجلود فقد استعملوا الأديم وهو الجلد الأحمر والقضيم وهو الجلد الأبيض⁽²⁾ والرّق وهو الجلد الرقيق⁽³⁾ ولم يلبث المخطوط العربي أن وجد في أوراق البردي المصري مادة طبيعية له بعد الفتح الإسلامي لمصر، وهي مادة جديدة فرضت نفسها على العرب وانتقلت بالكتابة العربيّة إلى مرحلة جديدة من مراحل نموّها وتطوُّرها، سمي أيضاً الأبردي والخصوص والحفأ والغافر والقرطاس أكثرها شيوعاً، ومن ثمّة خطّت الكتابة العربيّة خطوة واسعة في طريق الانتشار والذّيع⁽⁴⁾ لكنّه لا يعني القضاء على الرّق، وكان رَقّ الغزال هو المفضّل لكتابة القرآن الكريم عند المسلمين، فعليها كُتبت المصاحف الخمسة التي أمر بها الخليفة عثمان رضي الله عنه بعد الجمع الأخير والنّهائي للقرآن الكريم⁽⁵⁾. أمّا المواد الكتانيّة المشتقّة من النبات أو الأشجار التي استعملها العرب فمنها العُسب والكرانيف وهي جريدة النخل لتوافره في شبه الجزيرة، ومنها العرجون وهو عود أصفر فيه شماريخ العذق، ومنها المهارق والأقمشة فالمهرق لفظ فارسي معرّب وهي صحيفة بيضاء من القماش، تُطلق المهارق على المصحف عموماً، وقد استعملت كلّ هذه المواد في تدوين الوحي من أجل الحفاظ عليه، فيقول (زيد بن

(1) - اللّخاف: حجارة بيض رقاق مسطّحة تُستعمل للكتابة بعد أن تعدّل أطرافها وتُمسح واجهتها لتقبل مادة الكتابة المستعملة، مفرداً لَخْفَة بفتح اللّام.

(2) - كان الجلد الأبيض هو المفضل عند العرب لظهور سواد الخبر عليه، وكان كتّاب يكتبون على القضم، قال الأزهرى: قبض الرسول ﷺ والقرآن في العسب والقضم والكرانيف. ولم تحدد النصوص التراثية الفرق بين هذه المصطلحات، والمعاجم هي التي حددت ودققت في معناها.

(3) - الرّق كلمة قرآنية قال تعالى: ﴿وَالطُّور﴾، وكتاب مسطور في رَقّ منشور. سورة الطور: 1-3.

(4) - ينظر: عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي.

(5) - المرجع نفسه.

ثابت) حين أمره (أبو بكر) بجمع القرآن الكريم: «فجعلتُ أتبعه في الرّقاع والعُسف والخاف» ثم حدث أعظم تطوّر للمخطوط العربي وهو الانتقال إلى عصر الورق، ثم دخل الورق الصّيني (الكاغد) كمنافس للبردي المصري في بداية الخلافة العبّاسية، حيث عرف العرب مادة الكاغد إثر انتصارهم بـ (سمرقند) على (إخديش فرغانة) عام 133 هـ الذي كان يُناصره ملك الصّين، فقد عاد المسلمون إلى (سمرقند) بعشرين ألف أسير بينهم صينيون ممّن يعرفون صناعة الورق⁽¹⁾ فنقلوها إلى الفاتحين العرب في (سمرقند) فعلى أكتاف هؤلاء الأسرى قامت صناعة الورق وما لبثت هذه الصناعة أن انتقلت إلى بغداد وعرفت انتشاراً واستعمالاً، فبظهور الورق في آفاق الحياة العربية، عرف المخطوط العربي مرحلة جديدة من مراحل نموّه وتطوّره، وهي مرحلة خصبة تمتاز بكثرة الإنتاج ووفّره وسهولة تداوله بين القراء، يقول القلقشندي: «بقي الناس يكتبون على الرّق إلى عصر الرّشد فكثّر الورق وأمر أن لا يكتب الناس إلّا في الكاغد لأنّ الجلود تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنّه متى مُحى فسد وإن كُشط ظهر كشطه»⁽²⁾ ورغم ذلك لم يؤد ظهور الورق في العلم العربي واستعماله في الكتابة إلى اختفاء الرّقوق والبردي. أمّا الأدوات التي يُكتب بها، فهي الأخرى عرفت تطوّراً بتطوّر الزّمن وتغيّر ظروف المجتمع فقبل أن يعرف العرب الأقلام كانوا يستعملون آلات حادة ينقشون بها كلماتهم على الحجارة، مع أنّ العرب عرفوا الأقلام وكتبوا بها منذ العصر الجاهلي، بدليل قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾⁽⁴⁾ فعلى هذه المواد كتب العرب مخطوطاتهم بالمداد والأقلام القصبيّة وكانت المحابر من أهمّ عتاد الطّلبة.

فالكتابة على العُسف والأكتاف والأضلاع سواء كانت بأدوات حادة أو بمادة طباشيريّة أو فحميّة، كانت مرحلة سابقة للمخطوط، فليس كلّ ما كتب باليد

1 - صبح الأعشى، ج2، ص 275.

2 - عبد السلام محمد هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص 40 - 41.

3 - سورة القلم الآية 01.

4 - سورة العلق، الآية 04.

يمكن اعتباره بالضرورة مخطوطاً، فشواهد القبور وما نقش على الأحجار لا تُعتبر مخطوطات، فلفظ المخطوط مصطلح حديث استعمله المحدثون في مقابل كلمة مطبوع الذي يعني الكتاب الذي طُبِعَ وبقي متداولاً في عالم البحث والدراسة بخط النَّاسِخ، فلفظ مخطوط يقترب بالكتاب، حيث قال الزمخشري في (أساس البلاغة) : «خطَّ الكتاب بيده، وكتاب مخطوط» أو الزبيدي في (تاج العروس): «كتاب مخطوط أي مكتوب فيه»، ولو بحثنا عن جذر هذا اللفظ في القرآن الكريم نجد إشارة وحيدة في سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾⁽¹⁾ إنَّ استحداث مصطلح مخطوط مرتبط بالطباعة فالمخطوط العربي هو ذلكم الكتاب الذي كُتِبَ بخط عربي منذ ظهوره في المجتمع الإسلامي.

4 - واقع المخطوطات في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي:

تُعتبر المخطوطات صورة حيّة عن نتاج الفكر الإنساني في مجالات العلم والمعرفة بشتى فنونها. والدولة الجزائرية كغيرها من الدول، تُفاخر بامتلاكها وثائق ومخطوطات هامة ونادرة، تضمّ مصنفات الفقهاء ودواوين الشعراء وتجارب العلماء وفيها يكمن روح الحياة الثقافية والمعرفية التي عاشها أولئك الصّفوة من المؤلّفين طوال القرون الماضية. فكانت مكتبات الزوايا والمساجد والعائلات العلمية تزخر بآلاف المخطوطات التي تناولت شتى مجالات الحياة من فقه وتاريخ وجغرافيا وعلوم وتفسير إضافة إلى المصاحف القرآنية والسيرة النبوية... فكانت المنبع الوحيد للعلم، حافظ الشعب الجزائري على هذا الموروث الثقافي الذي أصبح قطعة منه، جزء لا يتجزأ من ذاكرته، اعتنت المكتبة الجزائرية منذ القدم بالمخطوطات العربية فجزء منها حفظته فهارس المكتبات العامة، وجزء آخر في مكتبات خاصة لدى عائلات العلماء، وأشهر المكتبات الخاصة: مكتبة (ابن الفكون) في قسنطينة، ومكتبة الشيخ (الهامل) ببوسعادة، ومكتبة الزاوية الرحمانية بطولقة، ومكتبة الشيخ (المهاجي) بوهرا، كما تحتضن وهران

(1) - سورة العنكبوت، الآية 20.

مكتبات عائليّة، كمكتبة الشّيخ (أبي طالب) وما بقي من خزانة (القاضي شعيب المعصوم) إضافة إلى مكتبة زاوية (سيدي احمد بن يوسف). بمدينة مليانة، كما توجد ذخائر من المخطوطات العربيّة حُفِظت عند علماء بني مزاب، كما تزخر ولاية أدرار بكم هائل من المخطوطات، فقد حافظت العائلات الجزائريّة -التي عُرف أسلافها بالعلم- ما خلفه الأوائل من تراث عبر القرون حتّى أضحي هذا الموروث شبه مقدّس لدى البعض تبركا ووفاء لذكرى الأجداد، كما حافظت مكتبتيّ المقامين (الأمير عبد القادر) و(الشّيخ الحدّاد) على المخطوطات. لم تكن العائلات العلميّة وحدها في مجال الحفاظ على المخطوطات، بل حتّى العائلات الحاكمة في الجزائر اعتنت واهتمّت بهذا الموروث الثقافي حيث أسّس أحد أمراء دولة بني رستم التي حكمت من 144هـ - 269هـ مكتبة بناهت تدعى مكتبة المعصومة، ثم جاءت الدّولة الفاطميّة من 269هـ - 362هـ وكانت لهم عناية خاصة بالمخطوطات العربيّة، ومن بعدهم الحمّاديون 362هـ - 404هـ وقد وجهوا عناية خاصة للكتب والمخطوطات على اختلاف أنواعها، واستمرّت هذه العناية بالمخطوطات في عهد الأتراك.

5 - فرنسا تعذب المخطوطات:

كانت الكتب والوثائق والمخطوطات من الضّحايا الأولى للاحتلال الفرنسي، حيث سلّط عليها أبشع أنواع التعذيب، حيث عمد على حرق مكتبات الزوايا والمساجد، مثل: زاوية شرفاء بملول وسيدي عبد الرّحمن اليلولي بمنطقة القبائل، كما لم تسلم من يده حتى المكتبات الخاصّة مثل مكتبة الشّيخ محمد الطيّب بن عمارة الوزلاحي، ومكتبة الشّيخ العربي بن عيسى، فقد تعرّضت هذه المكتبات للنّهب والتّخريب على يد جنود الاستعمار الفرنسي، ولم يسلم منها إلّا القليل جدّا ومازالت آثار الحرق والتّمزيق على صفحات ما تبقيّ منها، شاهدة على حقد الاستعمار على التراث الفكري العربي الإسلامي. لم يكتف الإستهلاك بالحرق والتّمزيق بل هرب الكثير من المخطوطات الجزائريّة العربيّة إلى مكتباته.

6 - المخطوطات في الجزائر بعد الإستقلال:

نالت المخطوطات عناية منذ الاستقلال، بدأت حيث المحاولات الجادة لجمع المخطوطات المتفرقة في أنحاء القطر الجزائري وتزويد المكتبة الوطنية بها فتسعى وزارة الثقافة إلى جمع هذه المجوهرات الثمينة من أغوارها؛ كمكتبات المواطنين الخاصة ومكتبات المساجد والزوايا واتخذت هذه العملية عدّة طرق منها: الدعاية وحثّ الجمهور على اهداء المكتبة ما قد يكون لديه من مخطوطات، أو عن طريق الشراء، كما يدخل في إطار عناية الجزائر بالمخطوطات ما تقيمه من حين لآخر من معارض، والأهداف التي ترمي إليها وزارة الثقافة من خلال هذه المكتبة:

- حفظ التراث الوطني ودراسته، وترميم المتلف منه.
- إحصاء المخطوطات الموجودة عبر التراب الوطني.
- إظهار القيمة العلميّة والحضاريّة للمخطوطات في شتى المجالات.
- وبهذا النشاط -الذي تقوم به الجزائر من أجل الحفاظ على التراث القومي وصيانتته- تبعث مقومات شخصيتنا العربيّة، لأنّ ثقافتنا الحاضرة لا تقوم إلّا على أساس القديم، فبغير اطلاعنا على ماضيّنا تشبّعنا بمؤلّفات أجدادنا العلماء والأدباء لن يكون لنا مستقبلا أصيلا، والأمة التي لا ماضي لها، لن يكون لها لا حاضرا ولا مستقبلا.

7 - العوامل المؤثرة في المخطوطات:

تتعرّض المخطوطات في الجزائر لعدّة عوامل جعلتها تنتحر يوما بعد يوم منها:

- **عامل الإستعمار:** عمل الإستعمار على إحلال اللغة الفرنسيّة محلّ اللغة العربيّة طيلة فترة الاحتلال، فأحرق آلاف المخطوطات، وهرب آلاف أخرى إلى بلاده لينتفع بها، وكان يهدف من وراء ذلك إلى طمس الشّخصيّة العربيّة الإسلاميّة، وقطع الصّلة بين الجزائري وتراثه الخالد.

- **عامل الطبيعة:** إنّ بقاء المخطوطات مدّة طويلة دون حفظ وعناية أمر يعجّل اندثارها، ويسلّمها لعادات الزّمن فتأتي عليها الرطوبة والحشرات، فأغلب المخطوطات

التي نَجَتْ من أيدي المستعمر كانت مدفونة تحت الأتربة، فتعرّضت بعض صفحاتها لللصق، كما تعرّض البعض الآخر للتلف.

- **عامل بشري:** يعدّ الإنسان شريكا في بقاء المخطوطات أرضا قاحلة، كون مالكيها يعتقدون أنّها ملكا لهم كأيّ عقّار موروث، فالكثير منهم يحتفظون بها، ويفضّلون بقاءها كما هي؛ كأنّهم يترّكون بها لاعتقادهم أنّها تحمل ريح الأوّلين، إضافة إلى أبشع تعذيب سلّطه أبنّاؤها عليها، وهو تهريبها وبيعها بأبخس ثمن لصالح الدّول الغربيّة.

- **عامل الإهمال:** انصرفت الجهات الرّسميّة في الدّولة عن الاهتمام بالمخطوطات، وكأنّ الأمر لا يعينهم، على الرّغم من وقوف بعض المسؤولين بالقطاعات الثقافيّة على المخطوطات في المعرض وكأنّ المخطوط -في نظرهم- تحفة أثرية لتجميل المتاحف والمكتبات، فلا يختلف حال هؤلاء عن حال المالكين لها ممّن لا يعرفون قيمتها العلميّة، فالجميع يتبرّك بها ويشم رائحتها وكفى.

هذه العوامل وأخرى ساعدت على تقزيم تراثنا الوطني، وهو أمر في غاية الخطورة يجب علينا تداركه قبل فوات الأوان.

8 - صعوبة تحقيق المخطوط:

تعرّض سبيل المحقّق عدّة عوائق أهمّها: استحالة العثور على جميع المخطوطات التي تخصّ كتابا واحدا -إلاّ على وجه التقريب- فمهما أجهّد المحقّق نفسه للحصول على أكبر مجموعة من المخطوطات فإنّه سيجد وراءه معقبا يستطيع إظهار نسخ أخرى من الكتاب، كون المحقّق يعتمد على فهارس المكتبات العامة بما فيها من قصور وتقصير، فلا يستطيع التدقيق فيها كما لا يستطيع الإمام بما فيها، أو استيعاب كل ما تتضمّنه من نفائس المخطوطات، إضافة إلى المخطوطات التي احتفظت بها العائلات، فهي غير مفهرسة.

يُعتبر كتاب (تاريخ الأدب) للمستشرق (بروكلمان) من أجمع المراجع التي عُنيّت بالدّلالة عن مواضع المخطوطات، إضافة إلى كتاب (تاريخ آداب اللغة العربيّة)

للمستشرق (جورجي زيدان) فحتى يكون العمل جيّداً على المحقّق أن يضيف التنقيب بنفسه في فهارس المكتبات وملحقاتها الحديثة، ويسأل الخبراء بالمخطوطات مستدلاً على مواضعها.

يواجه فاحص المخطوط جوانب شتى، ثمّكنه من أن يزن المخطوطات ويقدر قدرها، منها:

* «عليه أن يدرس ورقها، ليتمكّن من تحديد عمرها، بحيث لا ينخدع بما أثبت فيها من تواريخ قد تكون مزيفة.

* أن يدرس المداد ليعرف قرب عهده أو بعده.

* أن يدرس الخط، فكلّ عصر نهج خاص في الخط ونظام كتابته، يستطيع الخبير الممارس أن يحكم في ذلك بخبرته.

* أن يفحص أطراد الخط ونظامه في النسخة، فقد تكون النسخة ملفقة، فيهبط ذلك بقيمتها أو يرفعها.

* فحص عنوان الكتاب وما يحمل من إجازات وقراءات، حيث يجد في ثنايا النسخة ما يدل على قراءة بعض العلماء أو تعليقاتهم.

* أن يلجأ إلى المراجع التي يظنّ أن المخطوط قد استقى منها مادته.

* التأمّني في فهم النص، مع تغليب جانب اليقين على الشك.

* أن يكون للمحقّق صلة تامة بدراسة أسلوب المؤلف، وأن يكون ذو معرفة وثيقة بعصر المخطوط.

* أن يكون ذو خبرة بما يتعرّض له الكلام من التصحيف والتحريف.

* أن يُحسن الحيلة في تقدير ما انطمس وحرز ما تبقي، والمرانة الطويلة، والصبر الجميل والشّعور الصادق بالمسؤولية العلميّة.

* أن يؤدّي نص المؤلف إلى القارئ كما صنعه المؤلف، لا كما يستحسنه المحقّق، بأن يحتفظ المؤلف بمناهاته وأخطائه، فعلى المحقّق أن يُثبت هذه الأخطاء كما هي، مع الإشارة في الحواشي إلى صوابها»⁽¹⁾ فالتحقيق عمل يتطلّب جهداً ووقتاً وصبراً.

(1) - عادل الألوسي، التراث العربي والمستشرقون، دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونقاش الكتب العربية التي طبعت بالمغرب، القاهرة، 2001، دار الفكر العربي، ص 13.

9 - جهود المستشرقين في تحقيق المخطوطات العربية:

الاستشراق (Orientalism) مسمّى حديث يُطلق عل عناية الغرب بدراسة شؤون أقطار الشرق التاريخيّة والثقافيّة، فهو علم دراسة الشرق أو العالم الشرقي، فبرع عدد من الأوروبيين في هذا المجال فسميوا بـ (المستشرقين Orientalists) تُطلق على كلّ عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق لغاته وآدابه وحضاراته وأديانه⁽¹⁾ من الصّعب تحديد بداية الاستشراق، إذ أنّ بعض المؤرّخين يعودون به إلى أيّام الدّولة الإسلاميّة في الأندلس، في حين يعود به آخرون إلى أيّام الصّليبيين، بينما يُرجعه كثيرون إلى أيّام الدّولة الأمويّة في القرن الثاني الهجري، لم يظهر مفهوم الاستشراق في أوروبا إلّا مع نهاية القرن الثامن عشر ميلادي، حيث ظهر لأوّل مرّة في إنجلترا عام 1779م، وفي فرنسا 1799م.

الاستشراق نوعان هما: (الاستشراق القديم Old-orientalism) و(الاستشراق الجديد New-orientalism) فالقديم يعتمد على دراسة حضارة الأمم والشّعوب وآدابها وفنونها ولغاتها وتقاليدها، في حين يعتمد الجديد على جمع المعلومات عن جميع نواحي الحياة العربيّة، بما فيها الأوضاع السياسيّة وتحليلها، وكثيرا ما تكون رافدا للاحقة الإستخباريّة للدول التي تتعامل مع بلدان الشرق الأوسط، والتي لها فيها مصالح اقتصاديّة مؤثّرة⁽²⁾ فتجاوز الاستشراق دوره العلمي إلى دور سياسي.

كانت حركة الاستشراق مسخّرة لخدمة الإستعمار، وفي خدمة التّنصير وأخيرا في خدمة اليهود التي يهّمها إضعاف الشرق الإسلامي وإحكام السيطرة فيه بشكل مباشر أو غير مباشر، فلم تبخل الحكومات أو الهيئات ولا الشركات والمؤسسات ولا الكنائس في يوم من الايام عن دعم حركة الاستشراق ومدّها بما تحتاجه من أموال، وتأييد وافساح المجال أمامها في الجامعات حتّى بلغ عدد هؤلاء المستشرقين آلافا

(1) - نفس المرجع، ص 14

(2) - عادل الألوسي التراث العربي والمستشرقون، ص 9، ينظر: عبد القادر الرباعي، جهود استشراقيّة في قراءة الشعر العربي القديم.

كثيرة، لم يبق المستشرقون عند هذا الحد؛ بل تمكّنوا من التسلّل إلى الجامعات العلميّة العربيّة، وبين عدد كبير منهم فيها مثل مصر وسوريا، كما استطاعوا أن يؤثّروا على الدّراسات العربيّة في العالم الإسلامي من خلال تلاميذهم ومؤلّفاتهم، يتّضح أنّ الاستشراق تيار فكري، يتّجه صوب الشّرق لدراسة حضارته وأديانه وثقافته ولغته وآدابه من خلال أفكار اتّسم معظمها بالتّعصّب والرّغبة في خدمة الإستعمار وتنصير المسلمين وجعلهم مسخا مشوّها للثقافة الغربيّة. لكن بعضهم رأى نور الحقيقة، فأسلم وخدم العقيدة الإسلاميّة، فبدأت كتاباتهم تجنح نحو العلميّة، رغبة في استقطاب القوى الإسلاميّة وتوظيفهم لخدمة أهدافهم الاستشراقية، فالاستشراق يندثر باندثار الموضوعيّة.

فهل كان للمستشرقين دورا إيجابيا في الحفاظ على اللّغة العربيّة والمخطوطات؟

لا أحد ينكر الجهود التي بذلها المستشرقون في خدمة اللّغة العربيّة وتراثها، حيث نبشوا كنوز تراثها ونفضوا الغبار عن مخطوطات آدابها وعلومها ونشروا ما تركته ثقافتنا وحضارتنا -التي كانت في مرحلة تاريخيّة ممتدّة من مسيرتها الغنيّة والمتفوّقة على غيرها من ثقافات الأمم وحضاراتها- كما أنّ المستشرقين أغنوا التّراث العربي والأدبي خاصة «فخدموه بحثا مضنيا، وتحقيقا علميا صارما، ودرسا منهجيا وافيا، ثمّ إنهم سعوا ونجحوا في إيجاد موسوعات ومعاجم تضمّ النّاجح من أعمال الأجداد الأفاض، إضافة إلى تنشئتهم جيلا واعيا ومخلصا من العلماء العرب المدرّبين الذين نهجوا وطبقوا مناهجهم في الكشف والتحقيق والبحث والدّرس»⁽¹⁾ كما اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربيّة من كلّ مكان في بلاد الشّرق الإسلامي، فهذا العمل مبنيّ على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات؛ التي تحمل تراثا غنيا في شتى مجالات العلوم، فساعدت السفن التجاريّة على جلب الكثير من المخطوطات، إضافة إلى إرسال مبعوثين لشراء المخطوطات من الشّرق، فلقيت هذه المخطوطات اهتماما عظيما في أوروبا، حيث تم العمل على حفظها وصيانتها من التّلف، كما فُهرست

فهرسة علمية تصف المخطوط وصفا دقيقا، مشيرة إلى ما تتضمنه من موضوعات، وتذكر اسم المؤلف وتاريخ ميلاده ووفاته، وتاريخ تأليف الكتاب ونسخه... وهكذا استطاعوا أن ينشروا عددا كبيرا من المؤلفات العربية التي كانت عوناً كبيراً للباحثين الأوروبيين من المستشرقين وغيرهم «قام العديد من العلماء والمختصين المستشرقين بخدمات جليلة لرصد المخطوطات الإسلامية وإصدار فهرس مطبوعة لها، فقد قام المستشرق الألماني بروكلمان بإصدار فهرس شاملة للمخطوطات الإسلامية وأماكن وجودها، وكذلك قدم «فؤاد سيزكين» رسدا لمخطوطات القرون الأربعة الأولى -عصر ازدهار الحضارة الإسلامية- ومن الأعمال الحديثة فهرس المكتبات التي أصدرها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية عام 1984 م، وأشرف عليها «كوركيس كواد»، وكذلك فهرس المخطوطات التي أصدرتها مؤسسة الفرقان في لندن -أربعة مجلدات- صدرت عام 1992 م باللغة الإنجليزية بإشراف «جيفري روبر» وباللغة العربية عام 1997 م بإشراف الدكتور «عبد الستار الحلوجي»⁽¹⁾ ففضل المستشرقون في مجال الحفاظ على المخطوطات جميل. ومن أهم المخطوطات في المكتبات الأوروبية⁽²⁾:

* في فرنسا: مكتبة باريس، يوجد فيها ما يفوق سبعة آلاف مخطوط عربي، منها العلمية والأدبية والتاريخية، كما تحتوي على قطع من القرآن الكريم على الرق تعود إلى القرون الأربعة الأولى للهجرة، إضافة إلى مخطوطات في الطب كـ«كتاب العقاقير الطبية» لـ«ديوس قوريدس» على الرق من القرن الثاني أو الثالث للهجرة...

* في ألمانيا: تتركز المخطوطات العربية في مكتبة متحف الفن الإسلامي ببرلين ألمانيا وفي مكتبات خاصة لبعض المستشرقين مثل مكتبة هارتمان، وفيشر، وقد تضمنت المكتبات الألمانية مئات المخطوطات العربية تتناول الموضوعات المهمة في التراث العربي، كما اشار بروكلمان إلى مكتبات المؤسسات والجمعيات العلمية والتاريخية

(1) - ينظر عادل الألوسي، التراث العربي والمستشرقون.

(2) - نفس المرجع.

التي احتوت على مفردات ممتازة من المخطوطات والآثار العلميّة العربيّة، كما تضمّ جامعة لندن نفس المخطوطات، كما احتوت على أندر الطباعات التي أنتجتها أولى المطابع العربيّة الأوروبيّة، ومن تلك النواذر المخطوطة جزء من «مروج الذهب» لـ(المسعودي) و«وفيات الأعيان» لـ(ابن خلكان) و«كتاب العمدة» لـ(ابن رشيّق القيرواني) و«القاموس المحيط» لـ(الفيروز آبادي) و«معجم الصحاح» لـ(الجوهري) و«كتاب العمدة» لـ(الجواليقي) و«المزهر» لـ(السيوطي)... أمّا مكتبة (برلين) الوطنيّة فقد ضمت آلاف المخطوطات العربيّة في كلّ حقول التراث العربي، منها دواوين شعريّة وكتب في علم الفلك والرياضيات والطب.

* في إيطاليا: تحتوي المكتبة الفاتيكانية في إيطاليا على مجموعة نادرة من المخطوطات العربيّة، ومجموعة خرائط وقوانين عربيّة يبلغ عددها 1746 قانونا، إضافة إلى مجموعة من المخطوطات النادرة عن الجزيرة العربيّة، وقد وضع أوّل فهرس للمخطوطات الشرقيّة في هذه المكتبة، وأضيف إلى فهرستها عناوين مخطوطات جديدة ونفيسة بالعربيّة...

* في إسبانيا: تعتبر مخطوطات مكتبة الأكسوريال من أهمّ المخطوطات العربيّة في أوروبا، التي تركها علماء الأندلس ومحدثوهم...

* في بريطانيا: توجد في المكتبة البوديّة في أكسفورد مجموعة من كتب الأدب والتاريخ والعلوم، ولعلّ كتاب «مقامات الحريري» المصوّرة، والترجمة العربيّة لـ«كليلة ودمنة» وكتاب «الإدريسي» أكثر المخطوطات أهميّة، كما توجد نسخ مهمة في تاريخ والطب والشعر واللغة وعلم الفلك.

* في روسيا: تضمّ مكتبة ليننجراد مجموعة من نفائس الكتب العربيّة، منها «كتاب الخازجي» و«تاريخ الخلافة» لـ (الصولي) ونسخة من القرآن الكريم بخط كوفي، يقال إنّها نسخة الخليفة (عثمان) وعليه قطرة من دمه، ومخطوطات نادرة لـ(البيروني) و(اسامة بن منقذ) و(الحريري) و(ابن فرمان) و(أحمد بن ماجد).

* في السويد: تعتبر مكتبة جامعة (أبسالة) - وهي من أقدم مكتبات السويد، وتحتوي على فرائد من المخطوطات العربيّة والكتب المطبوعة النادرة، ولها فهارس من وضع (تورنبرج)، نشر الأوّل منها سنة 1928م.

حقّق المستشرقون المخطوطات العربيّة في شتى الميادين منها: التاريخ والجغرافيا والأدب واللغة وعلوم القرآن الكريم التراجم والسّير والتصوّف الإسلامي، وأظهروا قدرة فائقة في ذلك، إلّا أنّ ميدان اللغة العربيّة يُعدّ من أكثر الميادين التي توغلّ فيها المستشرقون، حيث برعوا براعة كبيرة في حقل تحقيق كتب اللغة العربيّة، ونشرها نشرا متقنا فخدموا بذلك اللغة العربيّة خدمة كبيرة بإصدار أمهات اللغة العربيّة، ومن بين تحقيقات المستشرقين في مجال اللغة⁽¹⁾:

- «أحكام الإعراب أو الإعراب عن لغة الإعراب» (جبرائيل بن فرحات الماروني)
- «الاستدراك سيبويه في كتاب «الأبنية والزيادات على ما أورده فيه مذهبا ومعه اختلاف الروايات» (الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن الإشبيلي).
- «الإنصاف في مسائل الخلاف (بين النحويين البصريين والكوفيّين) (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنصاري).

نستنتج ممّا سبق مدى أهميّة المخطوطات في حياة المجتمعات، كونها تمثّل ذاكرة الأمم، فهي ماضيها الذي يُبنى عليها مستقبلها، فقد حظيت الأمة العربيّة بعدد كبير من المخطوطات، لكن الكثير منها أُحرق أو سُرق، حيث تجاوزت كميّة المخطوطات العربيّة الموجودة في المكتبات العالميّة، كميّتها في البلاد العربيّة، لكن لا ننكر فضل ودور المستشرقين في الحفاظ على هذه المخطوطات، حيث أولوا لها عناية فائقة، فاهتمّوا بصناعتها عبر العصور المختلفة، فتمكّنوا من تحقيق كمّ هائلٍ منها في مجالات مختلفة.

10 - النتائج:

- تُعتبر المخطوطات كترا تراثيّا مهمّا.

(1) - عادل الآلوسي، التراث العربي والمستشرقون.

- حُظيت الجزائر بعدد كبير من المخطوطات -قبل الاحتلال الفرنسي-
- مارست فرنسا شراستها على المخطوطات فهُرِّبَتْها كما أُلْفَتْ ما بقي منها.
- أدركت وزارة الثقافة قيمة المخطوطات، فسعت جاهدة إلى جمعها وترميم ما أُلْفَ منها.
- ضاع عدد كبير من المخطوطات الجزائرية بعد الاستقلال.
- تعيش المخطوطات الجزائرية بين مطرقة الصّناديق، وسندان التهريب.
- إهتمّ المستشرقون بالمخطوطات العربية منذ زمن بعيد، فجمعوا وفهرسوها.
- تزخر المكتبات الغربية بأهمّ المخطوطات العربية.
- ساهم المستشرقون في الحفاظ على المخطوطات العربية، بتحقيق أمّهات الكتب.
- 11 - الاقتراحات:
- إعادة الاعتبار للمخطوطات العربية بجمعها وتحقيقها وترميمها.
- عقد ملتقيات لتحسيس الجزائريين بمدى أهمية المخطوطات.
- تشجيع الطلبة لتحقيق المخطوطات، بتقديم مساعدات مالية.
- شراء المخطوطات من العائلات لامتناس ظاهرة تهريبها إلى أوروبا.
- فتح أبواب مكتبات المخطوطات للباحثين والمختصّين قصد تحقيقها.
- فُهرست المخطوطات الموجودة لتسهيل عملية البحث على الباحث.
- استنساخ نسخ من المخطوطات العربية المهرّبة للتعرّف على تراثنا.

